

كتاب أثرى خيال أجيال من الفلاسفة والأدباء

حي بن يقظان.. قصة فيلسوف علمنا ما لا نعلم

إن كانت رواية ابن طفيل (حي بن يقظان) قد ماتت عربيا، فإنها حية لا تموت عالميا. هناك كتاب ومفكرون وفلاسفة كثر تأثروا بترجمتها الأولى إلى اللاتينية، التي سبقت ترجمتها إلى الإنجليزية، وتلتها ترجمات إلى الهولندية والألمانية والإسبانية، نجحت جميعها في ترك أثر على قامات طويلة؛ بدءا بديكارت وجون لوك، وصولا إلى كارل ماركس.

عنونا موحيا هو "الفيلسوف الذي علم نفسه بنفسه". وأسرت الترجمة خيال أجيال من الفلاسفة.

لن نبالغ إن قلنا إن الرواية شكلت مسار الفكر الأوروبي في القرن السابع عشر، وقدمت خلال عصر التنوير مثالا لما أطلق عليه "سباحة الأفكار" واستطاعت أن تتجاوز الحدود الدينية والثقافية واللغوية. ولم يفقد الكتاب أهميته الفلسفية حتى هذا اليوم.

وكما واجهت صوفي العالم شبه وحيدة، واجه حي بن يقظان العالم وهو طفل رضيع، وحيدا أيضا، حيث عثرت عليه ظليبة في جزيرة منعزلة فأرضعته وقامت بتربيته.

عندما كبر قليلا اكتشف أنه مختلف عن الحيوانات الأخرى التي عاش معها، فأخذ يتأمل الطبيعة من حوله، ويكتشف القواعد التي تتحكم بها وتحافظ فيها الأحياء على بقائها. وعندما يعرف على الله كمصدر لكل الوجود والمعرفة، يكتبسبها عمقا للعالم الذي يعيش فيه والمبادئ الطبيعية والأخلاقية التي تحكمه. وقد وضعه اكتشافه الذاتي بمعزل عن الكائنات الحية الأخرى المحيطة به.

وكما ظهر البرنو كونكس الرجل الغامض في حياة صوفي، ظهر في حياة حي بن يقظان رجل غامض جاء من جزيرة مجاورة يدعى أبسال، ليبدا الاثنان نقاشا دار حول الطبيعة والأخلاق والله. ويدهش أبسال عندما يعرف أن حي قد اكتشف بنفسه كل الحقائق.

ويحاول حي بن يقظان نقل فهمه العقلاني للأشياء إلى أهل جزيرة أبسال، ولكن هذه البادرة الحسنة تنتهي بالإخفاق. ويدرك بن يقظان أن معظم الناس تحركهم دوافع من الأناية والجنس والعواطف ولا يستجيبون لنداء العقل الأعلى والإيمان.

ورغم عيوب الناس وميولهم المدمرة، لا يمكن تركهم وشأنهم، فهم بحاجة إلى الدين لتزويدهم بمجموعة من القواعد والضوابط تمكنهم من إدارة شؤونهم على نحو هادف وسلمي. وبعد هذا الدرس البالغ للحالة الإنسانية، يعود حي بن يقظان إلى جزيته مع أبسال الذي صار تلميذا له.

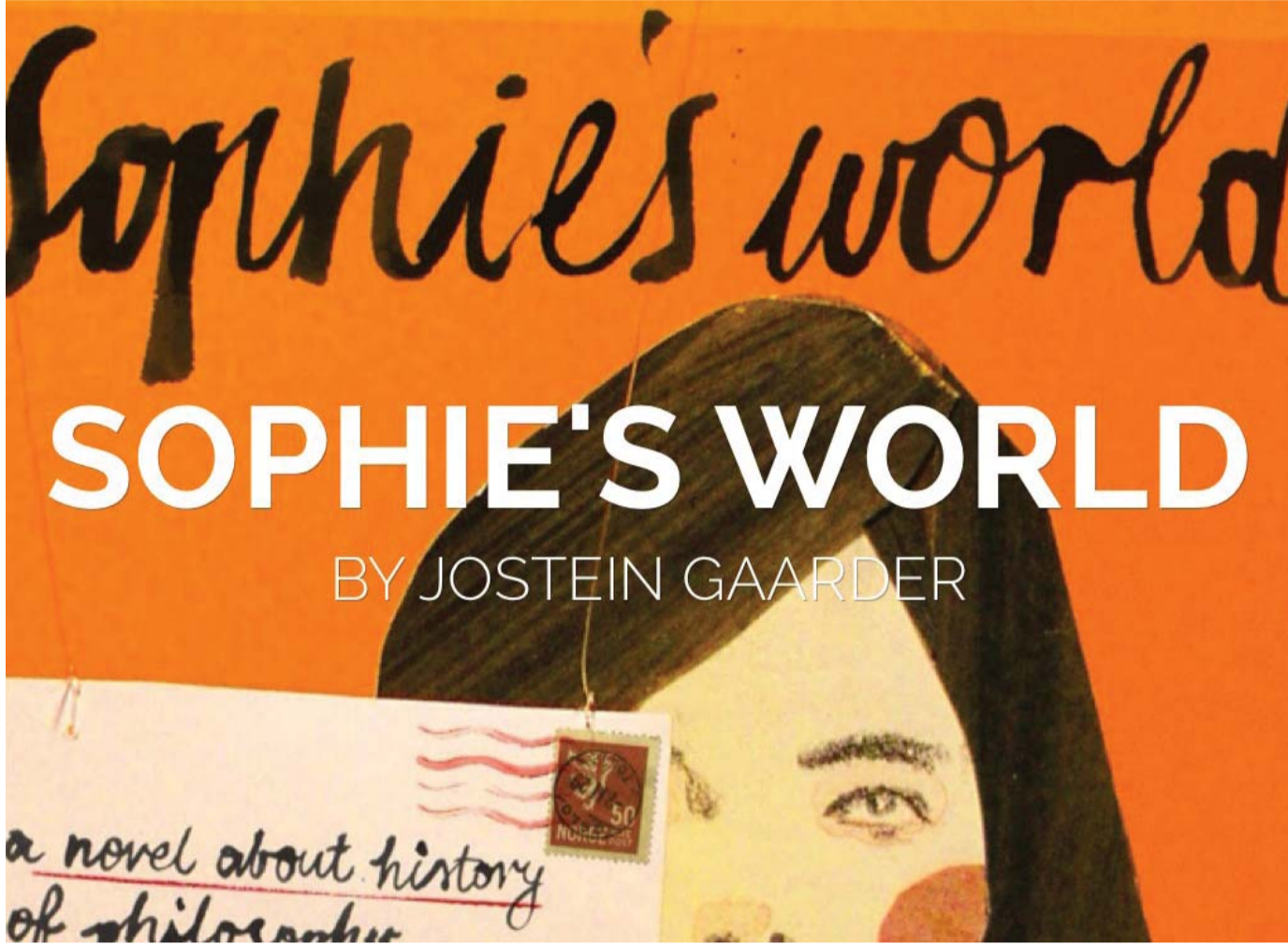
مولود من طين

في التراث العربي يوجد أكثر من قصة حملت عنوان "حي بن يقظان"، وأول من كتبها هو الفيلسوف ابن سينا، ثم أعاد كتابتها شهاب الدين السهروردي، وبعدها صاغها ابن طفيل، ثم كانت آخر رواية للقصة بقلم ابن النفيس. على أن أشهر مؤلف بين هؤلاء الأربعة هو ابن طفيل، وبسبب شهرة هذه الرواية قيل إن قصصا



Gli amici di Robinson (Pag. 10).

التشابه بين حي بن يقظان وروبنسون كروزو أكبر من أن نتجاهله



صوفي على خطى حي بن يقظان

وبين رواية كيبيرنج "ذا جانغل بوك" شبيها واضحا، وكذلك بينها وبين رواية "طرزان" التي ألفها إيدغر رايس وتدور حول طفل رضيع توفي والداه في جزيرة استوائية خالية من السكان، حيث التقطته وربته واعتنت به قرده.

لنكتفي بما قلناه عن حي بن يقظان الأثر ونقتفي حياة ابن طفيل المؤلف.

ولد ابن طفيل القيسي الأندلسي في مدينة صغيرة على أطراف قرطبة، عام 1105، وهو فيلسوف، وطبيب، وقاض، وفلكي. حاول التوفيق بين الرؤى الفلسفية والرؤى الدينية، وكان معاصرا لابن رشد صديقا له، وقد تولى منصب الوزارة في فترة من الفترات بالإضافة إلى كونه الطبيب الخاص للسلطان أبي يعقوب يوسف.

كانت لابن طفيل إسهامات واضحة فقد عُثر عنده بعد وفاته على خارطة توضح سير الأفلاك على عكس ما كان يثبت بطليموس، وترك من خلفه أرجوزة في الطب نكرها لسان الذين بن الخطيب. وتمتع طيلة حياته بحظوة كبيرة عند الخلفاء في عصره، وكنى بابي جعفر.

واستقى علمه عن ابن باجة، وكان المهتم لابن رشد في عمله وذلك حينما أخبره بأن حركة الترجمة تضفي على الكتب والمجلدات الغموض، وعلى ابن رشد أن يقوم بإيضاح النوايا والأهداف من هذه الكتب حتى يسهل على الناس فهمها، بحكم أنه يملك الإدراك والفهم وقللة المشاغل.

وكان لابن طفيل الأثر الواضح بالكتابات الغربية والشرقية، ما بين ناقد ومؤيد، توفي في مراكش عام 1185 عن عمر ناهز الثمانين، وقد شارك الخليفة في جنازته.

واليوم بعد رحيله 835 عاما لا تزال رائعته حي بن يقظان على نفس الدرجة من الأهمية، مثلما كانت قبل قرون.



الفلسفة والشرعية، وهو المزود بمعارف مختلفة، فهو فيلسوف، متصوف، وفلكي، وطبيب، إلى جانب كونه أدبيا. احتضنت القصة كل هذه المعارف، وخرجت إلى الوجود "كلا متكاملا ومتميزا".

صدى عالمي

أوحى القصة للمفكرين بمفهوم "العقل في حالته الأصلية" قبل أن تدخله أي فكرة أو معلومة، وقبل أن يخبر الحياة، وهو ما تبناه، لوك، وكان تلميذا لبيكوك وقرأ ترجمته لكتاب ابن طفيل وأبدى إعجاب به، كما أوحى إلى روبرت بويل بكتابة رواية تقع أحداثها أيضا فوق جزيرة مجهولة.

المخلصون للتراث العربي وهؤلاء الذين لم تلهم غوغل عن كنوز معرفية سيذكرون حتما قصة حي بن يقظان

أول ترجمة إنجليزية صدرت عام الف وستمئة وستة وثمانين بقلم جورج أشول، اعتمادا على الترجمة اللاتينية السالفة الذكر، ثم ترجمت مرة أخرى إلى الإنجليزية من العربية مباشرة عام ألف وسبعمئة وثمانية، على يد ساميون أوكلر لتظهر بعدها ترجمتان إنجليزيتان أخريان.

اطلع الفيلسوف الهولندي سبينوزا على الرواية، وشجع صديقا له على ترجمتها للهولندية، فكانت الترجمة التي ظهرت سنة ألف وستمئة واثنني وسبعين، وتلتها ترجمة هولندية أخرى بعد ثلاثة عقود.

كما ظهرت ترجمتان ألمانيتان، وقد اطلع الفيلسوف الألماني لايبنتس على إحدى هاتين الترجمتين، وأثنى على البعد الفلسفي في الرواية. وبالمثل امتدح أساتذة السوربون ترجمة بوكوك واهتموا بها.

وفي سنة ألف وسبعمئة وتسعة عشر الهمت إحدى الترجمات الإنجليزية الروائي دانييل ديفو فكتب روايته (روبنسون كروزو) التي جرت وقائعها في إحدى الجزر المهجورة، وهو العمل الذي يعده مؤرخو الأدب أول رواية إنجليزية.

أما ترجمة بن يقظان إلى الإسبانية، فقد تأخر ظهورها لبدائية القرن الماضي، ثم ظهرت ترجمة فرنسية لها في نفس العام بقلم المستشرق بيونج تيه. شكلت قصة حي بن يقظان إلهامًا لرواية جان جاك روسو "إيميل"، كما أن بينها

في أوروبا. لماذا اهتم المفكرون والفلاسفة بعمل فيلسوف مسلم من القرن الثاني عشر؟

يشير العنوان الذي اختاره بوكوك لترجمته، إلى أن حي بن يقظان يتعلم المبادئ الأساسية للعلوم والفلسفة والأخلاق بنفسه، دون مساعدة من مصدر خارجي، وأن العقل المجرد يمكن أن يكتشف حقيقة الطبيعة والدين، وأن ما يعلمه الدين السماوي وما يكتشفه العقل البشري المجرد من تلقاء نفسه، متوافقان ويكمل كل منهما الآخر، وأن الأناية والفوضى هما اللذان يخلقان مشاكل للعقل والإيمان.

وتؤكد مبادئ الإيمان حجج حي بن يقظان وأراءه حول الطبيعة والعقل والله، ذلك أن الفكر الإيماني، أي التعلل بالأيان وحده، ليس منطقا سليما، ولكن على المرء أن يستخدم عقله ليصل إلى فهم أعمق للواقع.

إن الطريقة التي يصل بها حي بن يقظان إلى التفكير المفاهيمي كانت لها أهمية خاصة في مناقشات حامية جرت حول العقل والتجربة والأفكار الفطرية. وعلى النقيض من رائد الفلسفة الحديثة الفرنسي رينيه ديكارت، الذي سطر اسمه في القرن السابع عشر، وأطلق العبارة الشهيرة "أنا أفكر إذا أنا موجود"، ليس لدى حي بن يقظان ميل للأفكار الفطرية، فهو يطور مفاهيمه المجردة حول الكون والأخلاق على أساس من الملاحظة والاستدلال.

ويؤكد هذه النقطة ملخص القصة الذي نشر في مجلة المعاملات الفلسفية التابعة للجمعية الملكية الإنجليزية في 17 يوليو 1671 "إن الغاية هي إثبات كيف يستطيع الإنسان من تأمل الأشياء الدنيا، من خلال الاستخدام الصحيح لعقل يسمو بنفسه إلى معرفة الأشياء الأسمى ثم إلى معرفة الأمور الطبيعية، من الأخلاق والألوهية".

هذا الوصف، إلى جانب كونه تعليقا على عبقريته حي بن يقظان المستقلة، بثبت قدرة العقل البشري على اكتشاف الحقيقة دونما حاجة إلى توظيف المفهوم الديكارتي للأفكار الفطرية. نتيجة تهبج اتباع الفيلسوف التجريبي الإنجليزي جون لوك، فهي تؤكد مفهومه للعقل بوصفه "صفحة بيضاء"، وأن المعرفة تأتي عن طريق التجربة والإدراك.

هذا غيض من فيض عن الجانب الفلسفي للقصة، أما في الجانب الأدبي، فقد شكلت إضافة متميزة إلى فن السرد القصصي، عندما جمعت بين ما هو فلسفي وما هو أدبي، إلى درجة أنها دخلت حلبة التنافز بين الأدباء والفلاسفة.

وانطلق ابن طفيل في نصه هذا من قصة الحياة التي حاول أن يعالجها من جوانبها المختلفة، ويتفصيلها الدقيقة، محاولا الوصول إلى غاية التوفيق بين

غربية مثل قصة "روبنسون كروزو" وقصة "طرزان" قد نسجت على منوالها.

وتتمثل القصة العقل الإنساني الذي يغمره نور العالم العلوي، فيصل إلى حقائق الكون والوجود بالفطرة والتأمل بعد أن تلقاها الإنسان عن طريق النبوة، وتؤكد قصة حي بن يقظان على أهمية التجربة الذاتية في الخبرة الفكرية والدينية، وتتجلى براعة ابن طفيل في مزج الأفكار الفلسفية الدقيقة بالقص الشعبي، وفي جهده لتصوير هذه الأفكار دون أن يضحى بالجانب المنطقي على حساب الجانب الفني.

هناك روايتان تفسران لنا ولادة حي بن يقظان، الأولى تقول إنه ولد من الطين في جزيرة جنوب خط الاستواء تسمى "الواق واق" وهي جزيرة خيالية كما هو واضح، في حين تخبرنا الرواية الأخرى بأنه قد ولد لاميرة تزوجت على غير إرادة أخيها الملك، من قريب لها اسمه يقظان، ثم أنجبت منه طفلا؛ فخافت أن يفترض أمرها، فبعاقبها أخوها هي وزوجها؛ لأنه لم يكن يريد لها أن تتزوج، فألقت ابنها في تابوت، وأسلمته إلى اليم الذي حمله إلى جزيرة مهجورة.

وتصافد أن مرت في المكان الذي رسا فيه التابوت غزالة تبحث عن صغير لها الذي فقدته، فسمعت صوت بكاء فاتجهت نحوه، وكان أن عثرت على الطفل الرضيع فأخذته وأرضعته وحضنته وربته، وكانت تحمله معها في تنقلاتها أينما اتجهت.

يكبر حي بن يقظان، وتمر حياته في سبع مراحل، الأولى: هي إرضاع الغزالة لحي وحضانتها ورعايتها له، حتى بلغ سبع سنوات، ثم بعد ذلك وفاة الغزالة وقيامه بتشريحها، لمعرفة سبب الوفاة، وبدا يدرك أن المعرفة لا يمكن اكتسابها إلا عن طريق الحواس والتجربة.

المرحلة الثالثة شكلها اكتشاف حي للنار. وكان احتكاكه مع الأحياء من حوله بداية مرحلته الرابعة، إذ أخذ يكتشف "الوحدة والكثرة في الجسم والروح"، ويتشابه الكائنات من مادة، واختلافها في الصور. وتلا ذلك مرحلة خامسة اكتشف من خلالها الموت.

المرحلة السادسة بدأت عند بلوغه الخامسة والثلاثين، وهي مرحلة "الاستنتاج بعد التفكير"، فوصل إلى أن النفس منفصلة عن الجسد. وأخيرا يدرك، في المرحلة السابعة، أن سعاده لا تتحقق إلا في "ديمومة المشاهدة لهذا الموجود الواجب الوجود"، والبقاء داخل حياة رسمها هو لنفسه.

فهم أعمق للواقع

أثارت القصة جدلا واسعا، واختلف المفسرون حولها؛ الشيء المؤكد الوحيد أنها استحوذت على اهتمام كبير في عصر وصف بعصر "الغليان الفكري"